صفحة الدراسات في «البناء»، أنشئت لتكون مساحة للأبحاث العلمية المتعلقة بشتى المواضيع ذات الصلة في قضايا الأمة والعالم العربي.
وهي إذ تتسع لمثل هذه الدراسات تبقى مجالاً مفتوحاً للحوار وطرح الإشكاليات الفكرية والسياسية وغيرها، تنشيطاً لدور الثقافة في الصيرورة الاجتماعية. علماً أن الآراء التي ترد على مساحة الصفحة تعبر عن أصحابها وليست بالضرورة مطابقة لقناعات الصحيفة.
إلا أنه انطلاقاً من القناعة الراسخة بضرورة خلق حوار فكري حول القضايا والإشكاليات كافة وما أكثرها، والتي تفرض نفسها على صاحب القرار والمثقف وقادة الرأي والمواطن في أي موقع كان، كانت صفحة الدراسات في «البناء»، هي الترجمة العملية لهذه القناعة، آملين أن تشكل هذه الصفحة مساحة فكرية. سياسية تعنى بهموم الوطن والمواطن، تدرس الحاضر لترسم المستقبل.

المسألة البيئيّة في الأديان الإبراهيميّة

الدراسة التي يقدمها الدكتور عزالدين عناية حول علاقة الديني بالبيئي، دراسة تتناول مسائل هي بحاجة إلى تفصيل ونقاش، خصوصاً ما تعلق منها بما سمّاه وحدة الأديان الإبراهيمية. فهل حقاً اليهودية دين والتوراة كتاب سماوي؟ وكيف تكون وهي لا تعترف بأن الله هو رب العالمين؟ بل رب اليهود وحدهم، والآخرون عجموات حيوانات خلقهم الله على شاكلة اليهودي ليليقوا بخدمته. وهل صحيح أن اليهودية حريصة على البيئة؟ ماذا يقول يهوه لجنوده حين يدعوهم إلى الانتقام من شعبنا بشراً وحجراً وشجراً؟ ماذا تفعل منظمات الإرهاب المصنوعة في مصانع اليهود بالبيئة والحضارة؟ وكيف تكون اليهودية ديناً إبراهيمياً وهي صياغة مشوّهة على نسبة تشوه نفسية كتّابها في بلاد الرافدين عزرا وغيره؟ كيف تكون ديناً إبراهيمياً وهي واحدة من مسروقاتنا التي سطا عليها اليهود إبان سبيهم في بابل العظيمة. مسروقاتنا التي ملحمة جلجامش وغيرها من ضمنها.

والبناء إذ تنشر الدراسة، فإنما تنشرها من باب فتح مساحات الحوار وصولاً إلى الرؤية الواقعية التي تسقط من التراث البشري هذه الأدران التوراتية، الأمر الذي لا يتحصّل إلا بالحوار الفكري.

د. عزالدين عناية

تُعدّ مسألة البيئة من جملة المسائل التي باتت تؤرق الضمير البشري في عصرنا الراهن، وليست الأديان والمعتقدات البشرية في منأى عن هذا التحدي. ربما وحدة التراث الإبراهيمي الجامع بين اليهودية والمسيحية والإسلام، ما يجعل تلك الديانات في صدارة تحمّل تلك المسؤولية في عالمنا اليوم، نظراً لاتساع رقعة أتباعها ولما تملكه من مخزون تراثي هائل، وبالتالي قوة أثر هذين العاملين في المساهمة في رفع ذلك التحدي لو تيسر توظيفهما التوظيف الحسن.

جدل الاتصال والانفصال بين الألوهية والكون

لقد شكلت الأديان الإبراهيمية، مع اليهودية والمسيحية والإسلام، تحوّلاً فارقاً لدى الإنسان في التعامل مع الكون والنظر إليه. كان الإنسان طرفاً من الطبيعة وامتداداً لها في آن واحد، وبما يماثل ذلك كانت آلهته أيضاً، من الطبيعة وفي الطبيعة. غلب ذلك التصوّر دهراً على عقول البشر، وطغى أثناءه منزع الدين الطبيعاني –Naturism– المؤله لشتى العناصر الخارقة، ومنزع الدين الأرواحي –Animism– الناظر إلى الأشياء عبر قياس مستوحى من ذات الإنسان. ولم يتجاوز وعيُ الإنسان عناصرَ الطبيعة المهيمنة على روحه ووجدانه، حتى بات رهين تلك الطبيعة وجوداً ومصيراً.

غير أن ما طرأ مع الأديان الإبراهيمية، في فترة لاحقة، من إضفاء بُعْد مفارق على مأتى الإنسان وعلى مآله، كان بالفعل تحوّلاً عميقاً في علاقة الإنسان بمحيطه. حيث تهاوى ذلك التمازج في الديانات المُجلّة للطبيعة، ليفسح المجال للتمايز في الديانات الإبراهيمية، التي أعطت الكون مصدراً خلقياً ومستقلاً بذاته. لكن وعلى رغم حدوث ذلك التحوّل، ما برح الإنسان على صلة وطيدة بالحاضنة الكونية، حيث غدت تلك الصلة مبنية على معادلة اتصال وانفصال، على خلاف النظرة السالفة التي رأت في الكون، فيه معاش الإنسان وفيه مآله. ولئن استمر الإنسان يشكل جزءاً وطرفاً في هذا الكون، وعلى وعي بحضوره فيه، فقد بات على إدراك بيّن أن في ذلك الكون مبدأه وليس فيه منتهاه. وبالمثل، وإن لاح أن فناءه المادي فيه، فإن مصيره الروحي يتخطّاه وخارج عنه، وهنا البعد المتجاوز الذي أطلّ مع الأديان الإبراهيمية.

مع هذه النظرة المستجدّة، ليس الإنسان فحسب من تعالى على هذا الكون المادي بل إلهه ومعبوده أيضاً، فبعد أن كانت الآلهة جزءاً من الطبيعة وامتداداً لها، باتت الألوهية المتعالية في الأديان الإبراهيمية مصدر ذلك الكون وعلّته، وغدت صلة الألوهية بالكون مختصرة ومجملة في قصة خالق ومخلوق. حيث لا مكان في الأديان الإبراهيمية لمفهوم الطبيعة العمياء بل هناك خلق بقدر. وليس الكون نابعاً من تفرّع عن آلهة، أو عن كائن مفارق، أو عن جوهر شامل، وإنما هو ناشئ عن صنيع إلهي واعٍ ومقصود. وبصفة ذلك الكون مخلوق فهو في حدّ ذاته ليس محلاً لأية قدسية أو عبادة، بل الثناء والإجلال لبارئه، وبالتالي انهار الوعي القديم بالطبيعة ليفسح المجال لمفهوم الخلق الوارد مع الديانات السماوية.

تشارلز داروين

فرويد

كارل ماركس

لين وايت

غدت الطبيعة مجرد شاهد على الخلق لا محلاً للألوهية أو القدسية، كما تم إفراغ الكون من قواه السحرية ونزع طابع الأسْطرة عنه، وهذا ما انتهت إليه الديانات الإبراهيمية والنظريات العلمية الحديثة سوياً، التي أعادت العالم إلى وضع «الشيء»، وهو ما نجد تأكيداً له في الفكر العقلاني الديكارتي الذي اعتبر الطبيعة آلية ناشطة لا غير، فيها الإنسان هو السيد والمهيمن، وبمقتضى هذا التجاوز حصل تولد الحداثة.

التأمت حول مفهوم الخلق العديد من العناصر الأخرى، فليس الزمن نهراً متدفقاً منذ الأزل يجري إلى ما لا نهاية «نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر»، كما عبر القرآن الكريم عن ذلك في (سورة الجاثية: 24)، بل له منطلق ومنتهى. فكان التاريخ في الأديان الإبراهيمية خطياً تصاعدياً، ينتهي عند يوم حشر لا ريب فيه. وهو معتقد يتغاير مع ما هو سائد في أديان أخرى، تميزت بنظرة دورية أبدية للزمن والفصول والكائنات، باعتبار المسار دائرياً وليس خطياً، وهي نظرة شائعة في الديانات الهندية، عبرت عنها بالخصوص عبر مفهوم التناسخ.

وضمن ذلك السياق الإبراهيمي صاغت اليهودية رؤية جذرية مغايرة عن الإنسان في الكون، تلخّصت في المقولة التوراتية: «فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكراً وأنثى خلقهم. وباركهم الله قائلاً: أثمروا وتكاثروا واملأوا الأرض واخضعوها. وتسلّطوا على سمك البحر، وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يتحرك على الأرض» (سفر التكوين1: 27–28). وعبّر القرآن الكريم من جانبه في مواضع عدة عن تلك العلاقة المستجدة «هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها» (سورة هود: 61)، و«هو الذي جعلكم خلائف في الأرض» (سورة فاطر: 39). فكان التمكين والاستخلاف والوصاية للبشر تكليفاً وائتماناً على الكون لا تسلّطاً عليه.

وفي اعتقاد اليهود والنصارى كان خَلق الإنسان على شِبه الرب، ما خوّل له التحكّم بقدر ذلك الكون، تصديقاً لما جاء في الكتاب المقدس «أثمروا وتكاثروا واملأوا الأرض، لتطغ الخشية منكم ورهبتكم على كل حيوان الأرض وطير السماء، وعلى كل ما يتحرك على الأرض، وعلى سمك البحر، فإنها كلها قد أصبحت خاضعة لكم» (سفر التكوين9:1–3). ونصادف شبهاً لمضمون ذلك القول في آيات الاستخلاف القرآني، الشبيهة من حيث المقصد لا من حيث الصياغة «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم» (سورة النور: 53). ولكن الملاحظ أن الأديان الإبراهيمية ربطت هذا التمكين في الأرض، بعدم إتيان الفساد واجتناب العبث بالخلق، ولم يكن دون قيد أو شرط. نقرأ في الكتاب المقدّس «وأخذ الرب الإلهُ آدمَ ووضعه في جنّة عدن ليفلحها ويعتني بها» (سفر التكوين2: 15)، وبالتالي هناك معنى المسؤولية الدائم بغرض المحافظة على هذا العالم. بصفة عنصر الفساد مرفوض أصلاً، حتى وإن أمْلت الضرورات عملاً فهو يقدّر بقدرها، وهو ما عبرت عنه التوراة بقولها: «وإذا حاصرتم مدينة حقبة طويلة معلنين الحرب عليها لافتتاحها، فلا تقطعوا أشجارها بحدّ الفأس وتتلفوها لأنكم تأكلون من ثمارها. هل شجرة الحقل إنسان حتى يهرب من أمامكم في الحصار؟ أما الأشجار التي لا يؤكل ثمرها فاتلفوها واقطعوها، لاستخدامها في بناء حصون حول المدينة المحاصرة المتحاربة معكم، إلى أن يتم سقوطها» (سفر التثنية 20: 19–20)، وبالمثل ورد في القرآن الكريم في مواضع عدة «ولا تبغ الفساد في الأرض إنّ الله لا يحبّ المفسدين» (سورة القصص: 77)، وكذلك في قوله: «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس» (سورة الروم: 41).

لاين وايت ونقد الرؤية اليهودية المسيحية للكون

غير أن تلك الرؤية الناشئة مع الأديان الإبراهيمية، التي تناولناها بالشرح والتوضيح سلفاً، اعتُبرت في مرحلة لاحقة أصل ارتباك العلاقة بين الكون والكائن البشري لدى البعض. إذ ثمة فكرة شائعة في أوساط «البيئويين»، أنصار تقديس البيئة، أن تحوّل البشرية من البانثيون التعدّدي إلى التوحيد الخالص، بعد مغادرة مرحلة التماهي مع الطبيعة، شكّل كارثة مفهومية أورثت تبعاتها البيئة ضرراً. حيث انهار ذلك التوحّد وتصدّع ذلك التمازج بين البشر مع حاضنتهم الكونية، على مستوى روحي ومادي، ليفسح المجال لمفاهيم دينية مفارقة تقطع مع ذلك التمازج.

وبالفعل تعرّضت تلك الرؤية للكون وللطبيعة، في الأديان الإبراهيمية، إلى ما يشبه الهجمة والتشكيك، منذ أن نشر المؤرخ الأميركي لاين وايت، عام 1967م، دراسته الشهيرة «الجذور التاريخية للأزمة البيئية»، التي تُعدّ حجر الزاوية في النقد الحديث الموجه لرؤية الكتاب المقدّس للكون. حيث نحا لاين وايت باللائمة على المسيحية الغربية، تقديراً منه لما تستبطنه من إلحاح على المركزية البشرية في الكون، وبما تحرّض عليه من استغلال مفرط للطبيعة من قبل الإنسان، لإشباع نهمه لا حاجته، كون ذلك السلوك يأتي نتيجة لإرادة الرب، فهذا التمشي يسوّغ خراب الأرض على حدّ زعمه. ووفق لاين وايت تتضمن التقنية وتستبطن «فظاظة مسيحية»، معتبراً إعادة إصلاح العقلية الدينية في تعاملها مع البيئة، هو السبيل الأوحد للخروج مما يتضمّنه الاعتقاد المسيحي عبر سلوك معتقديه من عسف وحيف تجاه العالم، كون تجاوز المركزية البشرية وحده الكفيل بتطهير المسيحية من خطيئتها تجاه الطبيعة.

ومنذ نشر تلك الدراسة أثيرت العديد من النقاشات الموسعة من قبل المنشغلين بالشأن البيئي. ويمكن اعتبار ما ذهب إليه وايت هو إكمال لتلك الحلقة النقدية الواسعة التي استهدفت الدين، سواء مع ماركس أو مع فرويد أو مع داروين. ويتسم الخطاب المتهجم على التراث الكتابي عموماً بمقاربة كارثية للمسألة، فضلاً عما يتميز به في معالجة مسائل البيئة من نبرة فاجعة، وهو خطاب أحياناً غير واقعي ومغال، بما يوشك أن يخلّف ذلك التكرار والإلحاح حالة من التعوّد والفتور لدى عموم الناس.

وضمن الرد على المؤرخ لاين وايت، ذهب نيل جوزيف لوفينجر إلى أن موقف وايت يعبر عن قراءة مبتورة وسيئة لسفر التكوين، خالصاً إلى أن تلك القراءة سطحية وعارية من الصحة، إذ بحثت عن كبش فداء لمسألة هي أعمق من أن يُكال فيها الاتهام لدين مّا. فقد استند وايت إلى نصّ التوراة الداعي إلى السيطرة على الطبيعة ولم يتنبه إلى قصة نوح مثلاً، التي ترمز إلى الحفاظ على التنوع البيئي، خالصاً «إلى أن المسألة بصفتها في العمق دينية فهي بحاجة إلى إصلاح من الجنس نفسه» ومرشّحاً القديس فرانشيسكو الأسيزي إلى تلك المهمة.

لقد كان استناد لاين على مقطع مختصر وارد في الكتاب المقدس حاسماً، مع اعتبار ذلك المقطع محورياً في الدين المسيحي، في حين يطفح الكتاب المقدس بالعديد من المواقف المتنوعة والإيجابية من الطبيعة. علاوة على أن الأضرار التي لحقت بالطبيعة في القرون الأخيرة قد تضافرت مع تراجع في سلطة الدين، وبالتالي ليس من الصواب أو الجائز تحميل الدين تلك المضار الحاصلة[5].

وضمن سيل الانتقادات التي انهالت على المسيحية، خلصت الباحثة سالي مافاغ إلى أن الأزمة البيئية قد اندلعت جراء تلاقي السلوك الاقتصادي الرأسمالي مع الثقافة الاستهلاكية النابعة من المسيحية. لقد فتح لاين الباب واسعاً أمام انتقاد التراث المسيحي بشأن الطبيعة، وتضافر مع ما ذهب إليه مع ما دعا إليه بعض أنصار البيئة من إعادة تقديس للطبيعة، بما يشبه الانبعاث المستجد لديانة إحيائية تتأسس على العودة إلى الطقس القديم للأرض، باعتبارها أمّاً وآلهة، وهو ما سعت الديانات الإبراهيمية جاهدة لإبطاله. وإن تلتقي الرؤية غير الدينية مع نظيرتها النابعة من الأديان الإبراهيمية في مقصد المحافظة على البيئة، فإن ما يميز التصور الحاصل في الأديان الإبراهيمية وهو الرفض الصارم للرؤى «البيئوية»، التي تريد تحويل الانشغال بالبيئة إلى ما يشبه الشعيرة الدينية ذات الطابع القداسي، باعتبار الأمر وثنية مستجدة. فقد حضرت في الكتابات البيئية المعاصرة نزعة تقديس تُجلّ البيئة إلى مستوى يضاهي إجلال الألوهية، ما جعل الكثير من القيادات الروحية في تلك الأديان تنظر إلى تلك المسألة باحتراز، وتنأى عن تلك التوجهات، مع حرص في الأثناء على إنتاج قاموسها الخاص في معالجة الشأن البيئي. حيث نلحظ حرصاً في الأدبيات الإيمانية اليهودية والمسيحية على استعمال كلمة «الخلق» بدل كلمات «البيئة» و«الوسط الطبيعي» و«الطبيعة»، في حين تتلاشى تلك الحساسية الاصطلاحية في الكتابات الإسلامية، على قلتها.

نحو تأصيل مسألة البيئة في الأديان الإبراهيمية

بشكل عام انطلقت الكتابة في مجال العلاقة بين البيئة والدين في الغرب مع مطلع سبعينيات القرن الماضي، وكان ذلك مع ريني ديبو –René Dubos– (1973)، وأوجين هارغروف –Eugene Hargrove– (1986)، وكالفين دي ويت –Calvin De Witt– (1987)، وتتابع ذلك مع جون إلدر –John Elder– (1992)، ودانيال هرفيو–ليجي –Danièle Hervieu-Léger– (1993)، وريني كوست –René Coste– (1994)؛ وبالمثل بدأت المسألة تشغل بال اللاهوتيين أيضاً، منذ أن تناول رجال دين الموضوع من زاوية دينية بحتة، كما كان مع توماس بيري –Thomas Berry– (1988)، وهانس كونغ –Hans Küng– (1991)، وماثاو فوكس –Mathew Fox– (1995)، وليوناردو بوف –Leonardo Boff– (1995)، ويورغن مولتمان –Jürgen Moltmann– (1998). وأما من الجانب الإسلامي فقد جاء أبرز تناول للموضوع من وجهة نظر إسلامية، في دراسات وأوراق ضمن أعمال مؤتمر «البيئة في الإسلام»، المنعقد في أكاديمية آل البيت الأردن في 27 سبتمبر 2010. لكن في العموم تبقى الدراسات في الشأن محدودة ويطغى عليها طابع الترصيف والعرض لما ورد في الكتاب والسنة، حيث لا يزال الخطاب فخرياً ولم يتحول إلى خطاب علمي تأصيلي بشأن البيئة.

وجراء ما ساد من خلط بشأن الخطاب الديني تجاه البيئة، حري الإقرار أن ليس من الصواب في شيء اتهام التراث الروحي، أكان إبراهيمياً أم غيره، بإلحاق المضرة بالطبيعة أو المس بالتوازن البيئي، وهو تراث ثريّ بالحثّ على التكامل بين الإنسان وبيئته. ويكفي أن نتمعن في قصة سفينة نوح الواردة في التوراة والقرآن حتى ندرك رمزية ذلك الحرص على المحافظة على التنوع البيئي. يقول ميرسيا إلياد في هذا الصدد: «في الأديان كافة ذات الطابع الكوني، تشجّع الحياة الدينية تلك الروح من التضامن السارية بين الإنسان والحياة والطبيعة». فلو تتبعنا على سبيل المثال تعامل الدين الإسلامي مع البيئة نجد لوامع تنمّ عن موقف في غاية الحرص والمسؤولية. فقد ورد عن النبي (ص) نهيه: «لا يخبط –يقلع– شجره ولا يعضد –يقطع– إلا ما يساق به الجمل»، بشأن شجر المدينة وما جاورها. وكان عليه الصلاة والسلام «ينهى أن يقطع من شجر المدينة شيء». وقال الإمام أبو يوسف: «حدّثنا مالك بن أنس أنه بلغه أن النبي حرّم عضاه –شجر– المدينة وما حولها اثني عشر ميلاً وحرّم الصيد فيها أربعة أميال حولها». قال أبو يوسف: «وقد قال بعض العلماء إنّ تفسير هذا إنما هو لاستبقاء العضاه»، وبالمثل وضمن السياق نفسه روي عن النبي (ص) بشأن مكة قوله: «إنّ الله حَرّم مكّة... لا يُختلى خلاها، ولا يُعْضد شجرها، ولا يُنفر صيدها»، فهذا الحث على الاعتناء بالمحيط وإنشاء المحميات، ينبئ عن حرص مبكر رافق الإسلام منذ عهده الأول، وليس أمراً غريباً عن تعاليم دينه.

لكن من المهم الإحاطة بالخطاب البيئي في تراث الأديان الإبراهيمية ضمن أطره، فالطبيعة حاضرة في العهد القديم وفي القرآن الكريم، بشكل واسع ومتكرر، حيث تأتي كأحد العناصر الأساسية في الخطاب الإيماني والقصصي والوعظي للحث على الاعتبار والتذكّر لدى البشر، لكن ما لم يكن حاضراً وهو غياب المنظومة البيئية التأصيلية، حيث سادت قراءة غير بيئية عبر القرون أسقطت الطبيعة، لعدم توفر الحوافز أو المثيرات أو الدواعي لذلك، أما اليوم فإن اجتراح تلك المفاهيم، أو بالأحرى إيقاظ تلك المفاهيم المضمرة والمتوارية، صار حاجة ماسة أمام الإشكاليات التي تتهدد الحاضنة الكونية. ومن هنا لا بد من إدراك طبيعة دلالات الخطاب حتى لا نقوّل النص المقدّس ما لم يقله، ولأجل تفادي الانحراف به باتجاه تأويلات خاطئة، قد تحصل من هذا الجانب أو ذاك.

ولذلك من المجدي إبراز الفلسفة العميقة والبعيدة الغور، المعبرة عن أصالة الديانات الإبراهيمية بشأن البيئة، التي لا تجد لها نظيراً، في بعض الجوانب، حتى في فلسفة الخطاب البيئي السائد اليوم. ففي تعاليم تلك الديانات يمكن الحديث عن عمق وجودي في الحفاظ على الطبيعة، يتجلى في مفاهيم محورية وتأصيلية لدى المؤمن. ولعل ضوابط الكاشير وغير الكاشير في اليهودية، والخطيئة وغير الخطيئة في المسيحية، والمحلل والمحرّم في الإسلام، التي تنظم المأكل والمشرب والفعل، بالإضافة إلى محطات التفرّغ المقدسة، مثل السبت، واليوبيل، والصوم الكبير، والجمعة، والأشهر الحرم، والإحرام وما شابهها، من الأدوات التي تناهض العبثي وغير المنضبط.

من جانب آخر، يلوح من خلال التراث الديني المسيحي مثلاً أن الإنسان مستأمَن على الكون، وهو ما يشترك فيه مع الدينين الآخرين، لكن مع التحوّلات الاجتماعية الحديثة التي باتت فيها المسيحية وكأنها ديانة الرأسمالية العالمية أثيرت شبهة التنافر. والواقع أن المسيحية السمحة ليست وراء ما يتهدد البيئة، بل الرأسمالية المنفلتة والليبرالية الاقتصادية الجشعة، ولذلك حري التمييز بين روح الديانة المسيحية الأصيلة وبين عقيدة الرأسمالية الجشعة وتجنب ذلك الخلط المتعمّد أحياناً.

ولكن أن يقال إن الأزمة البيئية فاجأت الأديان وهي في غفلة عن المسألة فهو صواب، فمن جانب الديانة المسيحية جاء تنبه لاهوتها متأخراً، على إثر تعرّض البيئة إلى أضرار جمة وبعد تداول تلك المسائل في الأوساط غير الدينية. ولكن أمام الانتقادات التي وُجّهت إلى المسيحية تجاه المسألة البيئية بدعوى تقصيرها في الحفاظ على النظام البيئي، استنجدت الكنيسة بسِيَر بعض القديسين لدفع تلك الشبهات، حيث عُدّ القديس بنديكتوس (480–547م)، والقديس فرانشيسكو الأسيزي (1182–1226م)، واللاهوتي بيار تايار دي شردان (1881–1955م) من أعلام ذلك الخط، باعتبارهم من أيقونات التعامل المتقدّم مع البيئة، ومن أنصار العناية بالطبيعة والالتحام بها، قبل ظهور موجة الانشغال والكلف بالشأن البيئي، التي بدأت في الانتشار مع ستينيات القرن الماضي، على رغم ذلك لم يشفع الأمر لدحض الاتهام المسلط. وفي الواقع إن جماعات الرهبنة في التراث المسيحي الغربي قد انتبذت مكاناً قصياً في الطبيعة بحثاً عن العزلة الروحية، وليس كلفاً أو انشغالاً بالمسألة البيئية، حتى لا يتم تحميل تراث الرهبنة ما لا يحتمل.

ولكن لا ينبغي إغفال حالة الانسجام العالية مع الطبيعة، التي عاشها ودعا إليها عدد من الأنبياء، بما يبرر التساؤل بشأن إمكان الحديث عن روحانية طبيعية في الأديان الإبراهيمية؟ أي أن الطبيعة والكون بشكل عام كانا محل تأمل دائم للاقتراب من الخالق من خلال التمعن في عظمة خلقه. لقد تطورت العديد من التيارات الروحية، سواء في اليهودية أو في المسيحية أو في الإسلام، واتخذت من الجبال والأدغال والصحارى أماكن خلوات وعبادة ومعاش. كما حبذت الخلاء والعزلة في الطبيعة البكر بعيداً من ضوضاء العمران، كل ذلك طلباً للصفاء قصد مناجاة الواحد الأحد. لذلك كان العيش في انسجام مع الطبيعة شكلاً من أشكال عيش الإيمان. وربما التأمل في سِيَر العديد من الربانيين وتتبع التجارب الروحية للأنبياء، مثل موسى (ع)، الذي مكث في الصحراء طويلاً حتى تنزلت عليه فيها الألواح، أو النبي يحيى –يوحنا المعمدان– (ع)، الذي اتخذ مكاناً نائياً في البرية، أو النبي محمّد (ص) الذي اعتزل في غار حراء طلباً للتحنث، هو دعوة عميقة لمناجاة الإله الأوحد في الطبيعة البكر.

غير أن ذلك الاحتفاء الكبير بالطبيعة في الأديان الإبراهيمية، تراجع في العهود الأخيرة. فمثلاً في عصرنا الحالي لا يرد الحديث عن البيئة والكون والوسط الطبيعي، داخل البيع والكنائس والمساجد، إلالماماً وبشكل عابر. فهو ليس من المواضيع التقليدية المتطرّق إليها في العظات والخطب بشكل عام. وإن يقع تناول المسألة، فهو عموماً يرد ضمن النهي عن الإفساد في الكون والحث على إعماره، بمدلول عمراني لا بمدلول بيئي، من هنا وجب تطوير الحديث عن الكون وتعميقه بما يساير الحاجة والضرورة. ولكن، ومن جانب آخر، هناك تبلور لخطاب أكاديمي بدأ يطلّ في الجامعات الدينية اللاهوتية المسيحية خصوصاً، من خلال إنجاز البحوث والرسائل، وإن كان لا يزال شحيحاً تناول المسألة في الجانب الإسلامي. وبشكل عام، ما انفكت الكتابات الإيمانية مصبوغة بطابعين بارزين، إما ذات منزع ردودي داحض للاتهام أو ذات منزع فخري، بما تستعيده من نصوص التراث وتتغافل فيه عن واقع البيئة بين أتباع تلك الأديان. ولم يتحول التناول لديها إلى خطاب واقعي علمي مع تبنيه طروحات دينية في الشأن.

على رغم ذلك نلحظ تطوراً للأنشطة والدعوات والكتابات لرفع هذا التقصير، ما انجر عنه سيل من الأدبيات في هذا المنحى، لاسيما في الجانب المسيحي، ما يمكن نعته باللاهوت البيئي –Theoecology–. وقد تكثفت تلك الاهتمامات منذ اعتلاء يوحنا بولس الثاني سدّة البابوية وتدعمت مع تولي خلفه البابا بنديكتوس السادس عشر ذلك المنصب، معلناً بتوليه قولته الشهيرة: «تكاثرت الصحارى الخارجية في العالم بموجب اتساع رقعة الصحارى الداخلية. فغدت ثروات الأرض ليس في خدمة تشييد جنة الله، التي يمكن أن يعيش الجميع فيها، بل في خدمة قوى الاستغلال والتدمير». ولا مراء في أن موضوع البيئة في الخطاب العالمي المعاصر قد نشأ خارج اهتمامات رجالات الأديان العالمية التقليدية، ولكن بعد أن انعقد مؤتمر ستكهولم عام 1972، ومؤتمر ريو دي جانيرو عام 1992، وانشغالهما بموضوع البيئة، إضافة إلى تشكل منظمات عالمية للغرض نفسه، مثل الاتحاد العالمي للوقاية (iucn)، والصندوق الدولي للطبيعة (wwf)، وبرنامج الأغذية العالمي (wep)، وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة (umep)، دبّ تنبه للمسألة، ساهمت الأديان مساهمة قيّمة في التحريض عليه، بما تكنه من عناية للطبيعة. إذ شعرت الأديان الإبراهيمية، ممثلة بأتباعها ورجالاتها، وكأنها مفرّطة في شأن مستأمنة عليه، فانبرى تدفق الأنشطة حثيثاً باسم تلك الأديان لتفادي عواقب ذلك التفريط. والملاحظ أن مجمل الكتّاب والباحثين الذين تناولوا بالدراسة علاقة البيئة بالدين، وتعرضوا إلى أثر المعتقدات والتصورات ذات الطابع الديني على السلوك والتعامل مع الطبيعة، قد بينوا الدور الفاعل الذي يمكن أن يسهم به الدين في الخروج من الأزمة. لكن وعلى رغم أن مجمل الأديان لها مواقف إيجابية من البيئة فلا تزال فجوة بين التعاليم الدينية والممارسات العملية للأتباع مستحكمة حتى الراهن.

مؤتمر هرتسيليا 2015 يناقش أوضاعاً «إسرائيلية» صعبة ويحذر من تهديدات مستقبلية

كمال مساعد*

ناقش المؤتمر السنوي لمركز «هرتسيليا» التهديدات الاستراتيجية المحيطة بدولة الاحتلال «الإسرائيلي»، بناء على الدراسات والتقديرات التي توصل إليها الخبراء الاستراتيجيون بدولة الاحتلال خلال السنة الأخيرة، ومؤتمر «هرتسيليا» يعتبر أحد أهم المؤتمرات الأمنية الاستراتيجية لـ«إسرائيل»، حيت يسعى لمساعدتها في تحديد المخاطر الأمنية التي تحيط بها، وكيفية مواجهتها: محلياً وإقليمياً ودولياً، وفي جميع المجالات: سياسياً واقتصادياً وأمنياً وعسكرياً واستراتيجياً، وهو يأتي في إطار سلسلة مؤتمرات سنوية بدأت قبل أكثر من 15 سنة، إذ انعقد المؤتمر الأول نهاية عام 2000، تحت عنوان «ميزان المناعة والأمن القومي»، بمبادرة من البروفيسور «عوزي آراد»، ضابط سابق في جهاز الموساد، وشغل منصب المستشار السياسي لرئيس الوزراء «الإسرائيلي» بنيامين نتنياهو، ما دفع الكثير من المشاركين الدائمين فيه لأن يطلق على المؤتمر «العقل الجماعي الاستراتيجي المفكر للدولة».

مناقشة أزمة «إسرائيل» الوجودية

يهتم المؤتمر بالدرجة الأولى بالمسألة الديمغرافية، وما يتعلق بقضايا الهوية والتعليم والاستراتيجية العسكرية والأمن والبحث العلمي والاقتصاد، حيث تنبثق أهدافه من التركيز على يهودية الدولة. و«أزمتها الوجودية المتفاقمة» ما تمخضت عنه ولادة فكرة المؤتمر، الذي استطاع أن يظهر بشكل سريع إلى الضوء، ويبرز أثره على الساحة الداخلية لـ«إسرائيل».

ولمعرفة أهمية المؤتمر وتأثيراته البعيدة المدى في الدولة وقراراتها، يمكن النظر إلى عدد من جداول أعماله المتنوعة على مدار السنوات الماضية، والتي احتوت العديد من القضايا المفصلية في «إسرائيل»، من أهمها:

مراجعة الحسابات وأداء الحكم.
صعود الإسلام السياسي في منطقة الشرق الأوسط.
إنتاج الغاز، واستقلال «إسرائيل» في مجال الطاقة.
الحرب «السيبيرية» من النظرية إلى التطبيق.
احتواء طموحات إيران الإستراتيجية.
تحديد أولويات التنمية الإقليمية.
الدور الإستراتيجي للولايات المتحدة وأوروبا وحلف شمال الأطلسي.
«إسرائيل» والسوق العالمية.
أين يتجه المجتمع «الإسرائيلي».
«إسرائيل» الأمنية في دول شرق أوسط مختلف.

«أوراق مؤتمر هرتسيليا تمثل خلاصة أبحاث وإصدارات وأعمال تحضيرية على مدى العام، أشرف على إعدادها مختصون وأكاديميون من أهم الجامعات «الإسرائيلية» والأميركية والأوروبية».

وبالنظر إلى التوصيات الصادرة عن المؤتمر، تمكن ملاحظة عدد من الاستنتاجات المهمة، ومنها:

«إسرائيل» في عامها الحالي تواجه أوضاعاً خارجية صعبة.

هناك تراجع للنفوذ الأميركي في المنطقة، مقابل صعود قوى إرهابية متطرفة وقوى إقليمية معادية لـ«إسرائيل».

حرص «إسرائيل» على متابعة ما يجري في المنطقة والعالم، مع إهمال رسمي عربي كبير لما يجري في الداخل «الإسرائيلي».

إعداد خريطة عمل استراتيجية وعسكرية واقتصادية وسياسية واجتماعية للحكومة «الإسرائيلية»، عبر حشد الأدمغة البحثية من مختلف التخصصات لتضع عصارة فكرها الإستراتيجي والعسكري والأمني والسياسي والأكاديمي، من أجل وضع هذه الخريطة لتشكل دليل عمل للقيادتين السياسية والأمنية.

القضية الفلسطينية لم تعد محورية تستحق الاهتمام «الإسرائيلي»، لأن هناك تطورات محورية تشهدها المنطقة دفعتها إلى الهامش، وبالتالي لم تعد تشغل بال القيادات ولا الشعوب في العالم العربي، مع توجه «إسرائيلي» لإنهاء القضية، وإخراجها من الأجندتين الإقليمية والدولية.

التهديدات التي تواجه «إسرائيل»

وبحسب الخبراء «الإسرائيليين»، فقد بينت مناقشة الأوضاع الأمنية وسبل توفير الحماية في ظل تعاظم الترسانة الصاروخية في الجبهات المحيطة بـ«إسرائيل»، انقساماً واضحاً حول تطورات المنطقة المحتملة والتغييرات في شكلها، على رغم تقليل غالبية الأبحاث المقدمة من إمكان قيام أي طرف بمغامرات عسكرية تهدد الأمن «الإسرائيلي»، لا سيما في ظل الانقسامات المذهبية والعرقية في المنطقة، فضلاً عن أن «الثورات العربية» ستزيد من اهتمام كل بلد عربي بنفسه وبمشكلاته الداخلية، على حساب القضايا القومية عربياً وإسلامياً، ليبقى الملف الأمني تجاه الجبهة الشمالية في الصدارة.

إلا أن العسكريين «الإسرائيليين»، وعلى عادتهم، حوّلوا منبر «مؤتمر هرتسيليا للحصانة القومية»، إلى حملة تهديدات واستعراض عضلات لقدرات الجيش والأجهزة الأمنية والاستخباراتية. ففيما دعا الرئيس السابق لمجلس الأمن القومي «الإسرائيلي» يعقوب عميدرور، الذي أورد 3 تهديدات أساسية تواجه الكيان «الإسرائيلي»، وتشمل التهديد النووي الإيراني في المقدمة، منظومات الصواريخ المحيطة، وتهديد المقاومة في غزة وسيناء، مضيفاً، في مداخلته بمؤتمر هرتسيليا ، أن «محيطنا لا يقبل بوجودنا، لذا فإننا سنعيش لسنوات بمقدار قوتنا ووفقا للسيف الذي نحمله في يدنا. لذلك علينا الحذر من خلال عدم القيام بمجازفات غير ضرورية، وأن نضع خطوطا حمراء وأن نرد بحزم في حال اجتيازه. داعيا إلى القضاء على الترسانة الصاروخية للمقاومة قبل وصول تهديدها إلى «إسرائيل»، في ظل التقارير المختلفة عن نجاحات جزئية حققتها عمليات القصف الجوي لمخازن السلاح داخل الأراضي السورية ولقوافل نقل السلاح النوعي؟ من طهران وصولا إلى بيروت.

إلى ذلك خرج رئيس قسم الأبحاث في شعبة الاستخبارات العسكرية، إيتي بارون، بتقارير تروج لحال رعب من الأوضاع الأمنية القائمة، فأعلن أنّ هناك 170 ألف صاروخ موجه إلى «إسرائيل» من لبنان وسورية وقطاع غزة، 160 ألف منها يمكنها الوصول إلى مسافة 45 كيلومتراً. وأشار بارون إلى أنّ إيران تتزود بصواريخ يمكنها الوصول إلى «إسرائيل». واستهدف بارون « المقاومة» في تقريره فادعى أنّ كمية كبيرة من الصواريخ ذات المدى الطويل، آلاف الصواريخ ذات المدى المتوسط (حتى 250 كليومتراً) وقرابة 100 ألف صاروخ متوسطة المدى. وجزم أن «حزب الله» يواصل بناء قوته، بما يشمل التسلح بوسائل قتالية يمكنها تقليص نجاعة التفوق الجوي والبحري «الإسرائيلي» (صواريخ أرض – أرض، قذائف وصواريخ شاطئ – بحر). كما أشار إلى أنّ المقاومة تسعى إلى امتلاك قدرات الإصابة الدقيقة، كالصواريخ التي يتم توجيهها بواسطة نظام «جي. بي.إس»، وأن إيران تعتبر مركز توفير المعلومات لهذا الغرض. كما تسعى إلى امتلاك صواريخ وقذائف وطائرات من دون طيار ذات قدرة على إصابة الجبهة الداخلية بشكل دقيق وهي نقطة ضعف «إسرائيل». وفي جانب غزة ادعى أنّ التنظيمات الفلسطينية تواصل إنتاج الصواريخ التي يمكنها الوصول إلى منطقة غوش دان، في تل أبيب. وبحسب يارون يوجد في غزة مئات الصواريخ التي يصل مداها إلى 80 كيلومتراً، وآلاف الصواريخ التي تصل إلى 40 كيلومتراً، وآلاف القذائف التي تصل إلى 20 كيلومتراً. وكشف أنّ «حماس» و«الجهاد الاسلامي» تعملان في إطار بناء قوتهما على تطوير قذائف محلية يصل مداها إلى 80 كيلومتراً، وبناء الأنفاق الهجومية، بمساعدة واضحة من خبراء ايرانيين ومن المقاومة في لبنان.

محاكاة حرب لبنان الثالثة في هرتسيليا

محاكاة «حرب لبنان الثالثة» كانت البند الأول على جدول أعمال المؤتمر السنوي الخامس عشر لمركز هرتسيليا. لكن اللافت في حينه كان إبقاء هذه المحاكاة مغلقة وعدم إتاحة الفرصة أمام غير المشاركين فيها لحضورها. لكن المركز عاد وكشف موجزاً مقتضباً عنها يتضمن أبرز الخلاصات التي أفضت إليها المحاكاة وفقاً لسيناريوهين؛ الأول ينحو في اتجاه محاولة منع الحرب، فيما يحاكي الثاني وقوعها ويركز على كيفية إنهائها.

لكن رئيس وزراء العدو، بنيامين نتنياهو، حذر من الخطر الذي تشكله إيران التي وصفها بأنها تتطور بسرعة كبيرة في الصناعات العسكرية، قائلاً خلال مؤتمر هرتسيليا في يومه الأخير، إن «لدى إيران 50 ألف شخص يعملون في الصناعات العسكرية وينتجون أسلحة متطورة ودقيقة تتحول إلى مشكلة: غواصات وأقمار اصطناعية... وكل أنواع الأسلحة».

وأخيراً شارك في المحاكاة الافتراضية 29 خبيراً في الأمن والسياسات الدولية وصناعة القرارات مثلوا سبع عشرة جهة ذات صلة بفرضية الأزمة هي: الولايات المتحدة، روسيا، الاتحاد الأوروبي، الأمم المتحدة، حزب الله، الحكومة اللبنانية، سورية، منظمات المعارضة السورية، «داعش»، إيران، السلطة الفلسطينية، حماس، مصر، الأردن، السعودية، الجامعة العربية.

وأبرز هؤلاء الخبراء كان السفير «الإسرائيلي» السابق في واشنطن، زلمان شوفال، وقائد الفيلق الشمالي السابق في الجيش «الإسرائيلي»، أيال بن رؤوفين، والمتخصص في الشؤون الاستراتيجية، رونين برغمان، الذين كان في عداد الطاقم الذي مثل «إسرائيل». وفي حين كان السفير الأميركي السابق في تل أبيب، دانييل كرتسير، عضواً في الطاقم الذي مثل الولايات المتحدة، تألف الطاقم الذي مثل إيران من ثلاثة باحثين أكاديميين والخبير المتخصص في الشؤون الاستخبارية، يوسي ميلمان. أما النظام السوري فقد ناب عنه البروفسور المتخصص في الشؤون السورية، أيال زيسر، فيما مثل الحكومة اللبنانية رئيس مركز الاستخبارات والإرهاب، الدكتور المستشرق رؤوفين إيرليخ. ومثل نائب رئيس مركز مكافحة الإرهاب التابع لمركز هرتسيليا، الدكتورإيتان عزاني، موقف المقاومة في حين توزع تمثيل السلطة الفلسطينية وحركة حماس والجامعة العربية والاتحاد الأوروبي على عدد من الباحثين الأكاديميين «الإسرائيليين» الآخرين.

* باحث في الشؤون الاسترتيجية